«لتكن مشيئتك».

(الصلاة الربية)

«الصلاة تقودنا إلى الينبوع السماوي، تملأنا من ذلك الشراب، وتُجري منا ينبوع ماء ينبع للحياة الأبدية».

(القديس يوحنا الذهبي الفم)

«يا رب، لست أدري ماذا أطلب منك. إنك الوحيد الذي يعرف ما أنا بحاجة إليه. أنت تحبني أكثر مما أنا أعلم كيف أن أحب. ساعدني كي أرى احتياجاتي الحقيقية التي هي مختفية عني. إنني لا أتجاسر أن أطلب صليبًا أو تعزية. إنني أقدر فقط أن أكون بانتظارك. إن قلبي مفتوح لك. من أجل تحننك زرني وساعدني. اضربني واشفني، إرمني وأقمني. إني أعبد بصمت إرادتك المقدّسة وطرقك التي لا تُدرَك. إني أقدّم ذاتي كذبيحة لك. إني أضع كل ثقتي بك. إنني لا أشتهي غير أن أعمل إرادتك. علّمني كيف أصلّي. صلّ أنت فيّ، آمين».

(فيلاريت متروبوليت موسكو)

«الصلاة تصبح نداءً من دون صوت».

(الأرشمندريت صفروني)

لحظة الصلاة

تأتيك لحظة الصلاة في كثير من الأوقات وأنت لست حاضرًا بعد، وأنت بعيد كل البعد عن الحضور الإلهي. ذلك لأنك وضعت أو خصّصت في الجدول اليومي والزمني، وقتًا من هذا الزمن للصلاة ووقتًا للأعمال الأخرى. إنك قد شطرت ذاتك وزمانك إلى أويقات يمكن أن تتناقض في ما بينها بجوهرها وفي معطياتها. إن هذا التقسيم الإرادي قد أخلّ بالتوازن في الإنسان وفي الزمن. لقد أصبحت تتكّل على قانون الوقت كي تُصلّي أو بمعنى أدقّ، كي تؤدي الواجب المفترَض منك أو المفروض عليك. هكذا تأتيك لحظة الصلاة وأنت ما زلت منهمكًا في الأمور الأخرى، أي مشطورًا، وهذا يستدعي منك إما أن تؤجّل صلاتك إلى وقت آخر وإما أن تسلخ ذاتك مما أنت فيه وتتسلّح بالأيقونات والشموع عساها تعطيك جوًا من التقوى والخشوع وتُعِدّك على أمل أن تتلو وتنهي صلاتك.

إن هذا ما يحدث للأسف مع البعض من المصلّين. منهم مَن يتألّم ممّا يحدث، والبعض الآخر يظن أنه قد أتمّ ما عليه. الفريق الأوّل يُعلّق بالقول أنه ليس هناك وقت كاف للقيام بكل شيء في آن واحد مع أنه هو الذي وضع برنامجه وجزّأه وحدّد لكل فترة عملها، أما الفريق الثاني فهو راضٍ ومكتفٍ بما قام به لأن هذا كلّ ما يعرفه؛ كلا الطرفين في همّ وعجلة وغير حاضر للحظة الصلاة.

من المؤسف أننا ندرك قيمة الصلاة وجدواها ولم نختبر مدى تأثيرها ونتائج عملها فينا. نحدّها ونُغلّفها في بوتقة من الزمن؛ نريد أن نصلّي ونشتهي أن نكون في السّكينة والطمأنينة، ولكننا لا نتركها تعمل فينا وتفلح في صميمنا لأننا بإرادتنا قد حدّدنا وقت بدئها ووقت انتهائها. نهرع إليها بهمومنا ومشاكلنا أو كلماتنا الطقسية مع كل تقوى وورع، ولكننا لا ننتهز الفرصة كي نتلقّى صداها وتأثيرها، كي تنسكب فينا وتحيينا. نأتي إليها ونذهب من عندها من دون أن نتأثّر بها، من دون أن تفعل فينا وتُضرم نارها في خلايانا وأحشائنا فنشتعل ونلهب الآخرين؛ لقد أتممنا واجبنا، ونبقى نحن كما نحن في رتابة البرنامج اليومي.

أين نحن من الثرى؟ إن الكنيسة المصلّية تدعونا بخبرة أبرارها وعلى لسان الرسول بولس إلى أن نصلّي من دون انقطاع أو توقّف. بمعنى آخر، أن نتحوّل إلى صلاة، أن تصبح الصلاة نفَسنا، شهيقنا

وزفيرنا. هل هذا بكثير أو مستحيل؟ هل هذا يدعونا إلى أن ندع كل شيء وراءنا ونذهب إلى الخلاء؟ هل في الصحراء والكهوف وحدها نستطيع أن نختبر هذه الخبرة؟ إن هذا طريق واحد، ولكنه ليس الوحيد للوصول إلى هذا الوِصال، فمن الممكن أيضًا أن نختلي من دون أن ننال المنال.

فكيف نقدر أن نجعل زماننا صلاةً؟ كيف يمكن أن تضحي حياتنا صلاةً ونحن في سباق مع أنفسنا وراء لقمة العيش؟ في هذا التأمّل أحسّ بأن هذا مستحيل، فيهرع قلبي من القلق، فألجأ إلى خبرة كنيستي كي أكتشف وأنهل من كنوزها عساني أختبر بنفسي وأتنوّر، وأعود أيضًا إلى كلمة الله الذي أخلى ذاته وفتّش عني أنا التائه وأعطاني حياته مثالاً بكلمات بسيطة زرعها في بشراه السّارة –بشارة الملكوت السماوي- بشارة الخلاص.

إن الصلاة لا تُعلَّم بل تُختبَر؛ إنها تُقتَنَص؛ إنها خبرة فريدة وشخصية؛ إنها ترجمة لكل ما حولنا إلى تسبيح لائق وتقدمة شكر ذكيّة للرّب. فإن طرقها عديدة ومتنوعة. المهمّ أن تُتلى لمجد الله بورع وتقوى، حانين رُكبة القلب، مسلّمين أنفسنا لمشيئته تعالى دون تردّد وبكل ثقة لأنه هو المُدرِك الوحيد لحاجاتنا الأرضية والأبدية.

ولكي نصير صلاةً علينا أن نكون في سلام مع ذواتنا وبعضنا مع البعض. علينا أن نصبح حبًا مستعدّين وجاهزين في كل وقت. لكي تكون صلاتنا من دون انقطاع، يجب أن تكون حياتنا منسجمة ومتناغمة ومتكاملة: أي أن يكون يومنا كله كاملاً سلاميًا مقدَّمًا للرّب، لا أن يكون جزء منه فقط. فمن انفجار الصبح إلى اللّيل نشكر الله ونسبّحه تسبيحًا لائقًا ونمجّده على عطاياه الوافرة التي هي لنا وسائل للخلاص: نشكره على الهواء الذي يملأ صدورنا كي نتنفّس ونقوم بعملنا معطيًا إيانا وقتًا أرضيًا جديدًا للتوبة؛ نشكره على الماء الذي به نقدر أن نتنقّى وننمو جسديًا وروحيًا فكما هو أداة للنظافة والاستعمال الجسدي فهو أيضًا ماء الولادة الجديدة، ماء لبس المسيح؛ نشكره على الثوب والمأكل والعمل، على الصحة والعافية، على المرض، على الألم وحتى على أصغر الأشياء التي من حولنا لأنها دائمًا وأبدًا إن هي أدركتنا ستؤول إلى خلاصنا.

حتى في عملنا اليومي، في علاقتنا مع جيراننا، مع بائع الخبز، مع الشخص العادي في الطريق، ومع أي لقاء، يمكننا أن نُصلّي. اهتمامنا بالطبيعة واكتراثنا بالحفاظ عليها وعدم التفريط بها هو صلاة.

إستعمالنا للمواهب التي خُصِّصنا بها، تنميتها، تهذيبها واستعمالها لخدمة الجميع هي صلاة أيضًا. يمكن لكل شيء أن يتحوّل إلى صلاة إذا أصبح تواصلاً ووصالاً. هذا كله يجعلنا صلاةً دائمةً مستقيمةً. كل هذا ليس ببديل عن حياة الجماعة الكنسية وخدماتها الأسرارية. لا تكتمل الصلاة الخاصة إلا في المشاركة الأسرارية الجَماعية؛ إنها تنقية للذات كي تقدَّم على مذبح الله الطاهر تقدمة شكر وحب. إنها سعيٌ إلى القداسة التي فتح الله لنا بابها.

ليس هناك لحظة للصلاة وأوقات أخرى للأعمال الثانية؛ إنما الوقت هو وحدة متكاملة غير متجزئ كما أن ذاتنا هي وحدة متجانسة ومتكاملة (روحًا وجسدًا). كما أن انفصام الجسد والروح يلغي الكيان، كذلك انفصام الوقت وتجزؤه إلى لحظات للصلاة ولغيرها يلغي انسجامنا وتواصلنا مع الله.